التواصل العلميّ بين علماء مالكيين بغرب أفريقيا وعلماء من المذهبين: الشافعي بمصر، والحنبلي بالسعوديّة

د. هارون المهدي ميغا
جامعة بماكو، مالي

ملخص:

يتأكَّد بما جاء في هذه المداخلة القول بأنّ التواصل العلميّ، والتعاون الثقافي بين علماء المذهب المالكي بغرب أفريقيا وعلماء المذاهب الفقهية الأخرى وبخاصة المذهبان الشافعي بمصر، والحنبلي بالسعوديّة، لم يكن يتمّ – لا قديما ولا حديثا- بين طرف قويّ وضعيف، أو عالم وجاهل، أو متحضِّر وبدوي– كما يحلو لبعض المشَوِّهين للحقائق- وإنّما كان يتمّ في أحيان كثيرة بين الأنداد، من أجل التباحث العلميّ بموضوعيّة، والمدارسة بدقّة وإخلاص؛ للوصول إلى نتيجة مقنعة مبناها الدليل والبرهان؛ لتحقيق هدف نبيل هو التعاون لنشر الإسلام وثقافته وتعاليمه وحضارته.

وقد وقفتْ بك هذه المداخلة على نماذج من ذلك التواصل، وعلى أهمّ دوافعه، ثم منهج التواصل، ووسائله، في القديم والحديث.

ومن ثَمَّ توصي بالاهتمام بهذا التواصل، والسعي في التوعية به، وفي تعزيزه وترسيخه على جميع المستويات، وبخاصة المستوى العلمي، والثقافي، والاجتماعي، والسياسي....إلخ.

Résumé:

Il ressort de cette communication que l'échange scientifique et la coopération culturelle entre les érudits du rite malikite en Afrique de l'ouest et les érudits des autres rites, notamment les rites Chafiite en Egypte et Hanbalite en Arabie Saoudite, ne s'est jamais passé entre deux parties, dont lune forte, savante, civilisée et l'autre faible, ignorante, non civilisée, comme ceux qui falsifient les réalités ont voulu le faire croire.

En effet, l'échange s'est passé très généralement entre des érudits de même génération, dans le but de discuter scientifiquement, avec objectivité, rigueur, et sincérité, pour aboutir à un résultat convaincant basé sur des preuves tangibles et pour atteindre l'objectif noble consistant à s'entraider ou à collaborer afin de répandre l'islam, sa culture, ses enseignements et sa civilisation.

Cette communication a permis de découvrir des exemples d'échange scientifique, leurs causes principales, leurs méthodes et les voies utilisées dans le passé et le présent.

Il devient donc impératif de s'interesser à ces échanges et d'œuvrer à les faire connaître et à les redynamiser à tous les niveaux, notamment scientifique, culturel, et socio-politique.

المقدّمة:

الحمد لله وحده، وصلَّى وسلَّم على نبينا محمد بن عبد الله وعلى آله وصحابته، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين. وبعد:

فإنّ من المسلَّمات أنّ الإنسان اجتماعي بطبيعته، لا يستغني – أبدا- عن التواصل مع غيره ممَّا يحيط به من مخلوقات الله في هذا الكون الفسيح، أيًّا كان نوع التواصل، وبأيّ لغة كان، ومهما بعُدت المسافة. أساس هذا التواصل إنّما هو التأثُّر والتأثير، الأخذ والعطاء. ولعلّ أفضل تواصل هو ما بُني على العلم والمعرفة؛ لما فيه من تغذية العقول، وترويض النفوس، وتضييق مواطن الاختلاف،

وتقريب مواطن الائتلاف، ونشر ثقافة التعايش السلمي والمذهبي، والتعاون لتحقيق السعادة في الدارين.

لذلك اخترت التواصل العلميّ موضوعا للمشاركة في هذا الملتقى العلميّ، لعلّي أتمكَّن من تحقيق هدفين، أحدهما: إبراز جوانب من انفتاح علماء المذهب المالكيّ على نظرائهم من المذاهب الفقهية الأخرى، قديما وحديثا. والآخِر: إبراز جانب مهمّ لمَّا يَنَلْ ما يستحقّه من دراسات علميّة، وبحوث معمَّقَة، ذات دقّة وموضوعيَّة. ألا وهو التراسل العلمي والثقافي والاجتماعي بين غرب أفريقيا وأجزاء العالم الإسلامي الأخرى[1]، برغم توفُّر المادّة العلميّة وبخاصّة في المخطوطات وبعض الكتب التاريخيّة والحضاريّة.

تتعلَّق مداخلتي بالمحور السابع: المذهب المالكي والمذاهب الفقهيّة الأخرى؛ فكان عنوانها:((**التواصل العلمي بين علماء مالكيين بغرب أفريقيا وعلماء من المذهبين الشافعي بمصر، والحنبلي بالسعوديّة**)). وقد قسمتها إلى مقدّمة، ومطلبين، ركَّز الأوّل على نماذج قديمة، ودوافعها، ثمّ منهجها ووسائلها، والآخِر على نماذج حديثة، ودوافعها، ثم منهجها ووسائلها، فالخاتمة.

وإنّي أشكر لوزارة التعليم العالي والبحث العلمي وللجامعة الأفريقية في أدرار بالجمهورية الجزائرية على إتاحة الفرصة لِي كَيْ أشارك كوكبة من العلماء والباحثين في هذه المائدة العلمية الدسمة.

والشكر موصول للأخ الدكتور الخضر محمد عبد الباقي، مدير المركز النيجيري للبحوث العربيّة الذي يجسِّد معاني التواصل في جمع الباحثين من أفريقيا وغيرها على موائد علميّة.

1- لكاتب هذه السطور محاولات ستأتي الإشارة إلى بعضها.

من التواصل العلمي قديما:

للتواصل العلمي والتعاون الثقافي والحضاري جذور راسخة في تاريخ علاقات غرب أفريقيا بغيره من أجزاء العالم، وبخاصّة شمالُ أفريقيا، وشرقُها، وبلادُ الحرمين الشريفين، وغيرها. سواء تعلَّق الأمر بالأفراد كالعلماء، والملوك، والتجَّار، أم بالهيئات والمؤسسات. ومن المعلوم أنّ المذهب المالكي غلب في جنوب الصحراء منذ القرن الخامس الهجري، فكان الفقه كله فقها مالكيا، كما غلبت الثقافة المالكية؛ فقلَّ أن تجد في السودان الغربي مذهباً إلا مذهب مالك، وفقهاً إلا فقه مالك، وثقافة إلاّ ثقافة مالكيّة. وقد تمّ ذلك التواصل في القديم وفي الحديث برغم ما اشتهر عن تمسُّك المالكيين– شعوباً وحكاماً– بمذهبهم أيَّما تمسُّك، وتشدُّدهم فيه غاية التشدد، حتى وصفهم بعض المؤرخين بأنهم يابسون في الدين، وأنّ المجتمعات في غرب أفريقيا طُبعتْ بالطابع المعروف عند المتَّبِعين لمذهب الإمام مالك من التزمُّت والشدة في الدين، وتمسك الفقهاء بالتقاليد، وعزوفهم عن مصاحبة السلطان، وعن تولِّي الوظائف، ثم تغلغلهم في صميم الحياة، وتمتعهم بالزعامة الدينية والشعبية، الصورة نفسها التي نلمحها في المغرب الإسلامي[1].

من أهمّ دوافع التواصل العلمي قديما:

التأكُّد والتثبُّت، حيث تأتي إجابات علماء المذاهب الأخرى مطابقة -تماما- لإجابات علماء مالكيين بغرب أفريقيا. المناقشة والمدارسة والردّ على رأي انتشر عن أحد علماء المذاهب الفقهية الأخرى. الاستفسار عن مسألة. توقُّع إحاطة أكثر بالجوانب المختلفة للمسألة؛ بتوفُّر مصادر وهيئات علميّة غير موجودة في غرب أفريقيا. التعاون في نشر الإسلام وثقافته وحضارته.

من نماذج التواصل العلمي قديما: الإمام الحافظ جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي(ت 911هـ) وهو من علماء الشافعية، في جمهورية مصر.

له تواصل علمي مع العلماء المالكيين بغرب أفريقيا وسلاطينها، إمّا بحضورهم لدروسه العلميّة بالقاهرة في طريقهم إلى الحجّ والعودة منه، وإمّا بالمراسلة. منها:

1- مراسلته لسلاطين بلاد السودان الغربي وعلمائها عموما، ولسلطان كاشنه خصوصا[2].

وقد ضمنّها الوصيّة بتقوى الله، والتذكير بالآخرة وعدم الاغترار بالدنيا وزينتها، والدعوة إلى الوقوف عند حدود الأحكام الشرعيّة، وإلى العدل بين الرعيّة، والأمر بالمعروف، وباستفتاء أهل العلم الثقات من حملة الشريعة عمّا يعرض لهم من مشكلات، وإنكار بعض المخالفات الشرعية التي سمع عنها في دولهم.

---

[1]- انظر: سيادة المذهب المالكي في أفريقيا جنوب الصحراء في ظلّ الممالك الإسلاميّة، د.محمد أبو محمد إمام/6، 7، 8، بحث مقدَّم إلى الندوة الدولية المنعقدة بجامعة أفريقيا العالمية بالخرطوم بمناسبة مرور 14 قرنا على دخول الإسلام في القارة الأفريقية، عام 2006م.

[2] - انظر: نيل الابتهاج بتطريز الديباج، أحمد بابا التنبكتي، تحقيق د.علي عمر265/2، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط1عام 1423هـ 2004م ، والإسلام في نيجيريا والشيخ عثمان بن فوديو الفلاني، آدم عبد الله الآلوري /89، ط3، عام 1398هـ 1978م.

2- وفي تاريخ الفتاش:

لمحمود كعت أنّ أسكيا محمد الكبير إمبراطور سنغاي الإسلاميّة التقى السيوطي بمصر **في عودته** عام 903هـ من أداء الحجّ[1]، وسأله عن قضايا وافقت إجاباتُه عنها إجاباتِ علماء السودان الذين كان أسكيا قد سألهم كالشيخ المالكي محمد بن عبد الكريم المغيلي(ت 909 هـ) وغيره، كما يقع الحافر على الحافر[2].

3- للسيوطي مراسلة:

علميّة أخرى ذات صلة بأفريقيا الغربية، كانت بينه وبين **محمد** بن عبد الكريم المغيلي، السابق ذكرُه، تتعلق بتحريم السيوطي للمنطق وتحليل المغيلي له وردّه عليه، وقد وردت الرسالتان نظما، ذكر أحمد بابا التنبكتي أبياتا منهما[3].

ويقال: إنّ السيوطي زار غرب أفريقيا ومكث في كاشنه، وأغادز، وكانو، ثم رجع إلى مصر، وإنّه اجتمع والشيخ محمد المغيلي في بلاد السودان؛ فكانت بينهما المناظرة السابقة في المنطق، ثم اختُلِف في مكان الاجتماع أهو كاشنه أم تَكْدَه، أم تنبكتو؟[4].

وكون المناظرة بالمراسلة والسيوطي في مصر أشهر وأقوى؛ لأنّه لا يمكن لزيارة مثل زيارة السيوطي أن تكون سَقَطا لا تتحدّث عنها المصادر، كيف وقد ذاعت فيها شهرتُه ومُراسَلتاه السابقتان[5]؟

4- ومن التواصل العلمي بين علماء مالكيين بغرب أفريقيا وغيرهم:

أ- مراسلة اللمتوني للسيوطي:

وهي رسالة مهمة مؤرَّخة بحوالي عام 898هـ 1493م، أرسلها إليه الشيخ شمس الدين محمد بن محمد بن علي اللمتوني، سمّاها " **مطلب الجواب بفصل الخطاب**". وقد ردّ عليها السيوطي برسالة سمّاها " فتح المطلب المبرور وبرد الكبد المحرور في الجواب عن الأسئلة الواردة من التكرور"[6].

في رسالة اللمتوني مسائل فقهية، وعقدية، وثقافية، وتعليمية، وأخرى تتعلق بالعادات الاجتماعية والاقتصادية، وبإدارة شؤون الناس في بعض مجتمعات السودان الغربي[7].

أمّا إجابات السيوطي فقد قسّمها وفق الحكم الشرعي المترتِّب على كلّ مسألة، فمنها ما هو مُقتضٍ للكفر مُخرِج من الملة، وما لا يقتضيه فحكمه إمّا حلال، أو حرام، أو مكروه، أو مباح[8].

ولا شكّ في أنّ إجاباته وجدت صَدًى طيّبا في التواصل العلمي والاجتماعي، والتعاون الثقافي، عند السائل وعند الطبقة العلمية والدينية في المجتمعات التي نشرت فيها؛ **فالسيوطي الشافعي**

---

[1]- انظر: تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش، محمود كعت /12-13، 68، نشر هوداس ودلافوس ، مطبعة برين ، باريس عام 1332هـ 1913م

[2]- انظر: المصدر السابق/ 15

[3] - انظر: نيل الابتهاج بتطريز الديباج 2/267-268

[4]- انظر: الإسلام في نيجيريا/89-90

5- انظر التفاصيل في بحثنا: المراسلات العلمية وأثرها التعليمي والثقافي والإصلاحي بغرب أفريقيا/8-10، بحث مقدَّم إلى المعهد الثقافي الأفريقي العربي (ICAA) بماكو، مالي عام 2008م، للمشاركة في المسابقة الدولية التي نظمّها المعهد للبحوث الأكاديمية حول العلاقات الثقافية الأفريقية العربية. وبحث: المراسلات العلمية وأثرها التعليمي والدعوي بغرب أفريقيا رسالة ابن باز نموذجا، د.هارون المهدي ميغا، مجلّة قراءات أفريقية، مجلّة ثقافية فصلية متخصصة في شؤون القارة الأفريقية، يصدرها المنتدى الإسلامي بلندن، العدد3 ذو الحجة 1429هـ، ديسمبر 2008م، ص4-15

[6]- ينظر نصّ الرسالتين في: الحاوي للفتاوى، عبد الرحمن السيوطي ، ج1/284-291، 291-294، دار الكتب العلمية، بيروت، عام 1408هـ 1988م.

[1]– **ممَّا ورد في هذه الرسالة**: الفجور في الخصومة برمي الأحرار بالعبودية زورا وبهتانا، واسترقاق الأحرار، والشعوذة، والتطير ببعض الحيوانات والأيام، وفرض الإتاوات وإهانة من لا يدفعها، وعدم توريث الورثة الحقيقيين فما تركه الميّت يكون لأبناء إخوته وأهل القوّة والجاه. **ومنها**: موالاة الكفار وعونهم على المسلمين-وأحيانا- معاداة من عادى الكفار. وقطع الطريق، والاختلاط، والاستغناء عن صداق المرأة بالذبيحة والنفقة، والرجل التيس أي المحلل للمطلقات ثلاثا، والديوث الساعي بالفاحشة بين الرجال والنساء، والقصّاصون، وعلماء السوء، والنميمة، والتجسس مطلقا أو للكافرين على المسلمين، والغشّ، والظلم، والرشوة، وامتهان المحن الحقيرة كالتسول. والصلاة بالتيمم فلا يتوضّأ أحدهم إلاّ نادرا، وترك القرآن والسنّة وأخذ الرسالة ونحوها من كتب المذهب المالكي، وتحريم تفسير القرآن، وأخذ العشر من الميراث أجرة على تقسيمه، وقراءة سورة يس على طريقة معيّنة لمعرفة السارق، وغيرها. **وممَّا ورد فيها**: التخليط بين الإسلام وبعض الشركيات، كالذين يقومون ببناء المساجد وتلاوة القرآن ودراسة العلوم، والحجّ وغيرها من أعمال البر ومع ذلك يعبدون الأصنام، ويذبحون لها، ومنهم من ينكر البعث والحساب، ولا تصوم نساؤهم ولا يصلين إلاّ إذا كبرن انظر: الحاوي للفتاوى ج1/284-291

[2]- انظر: المصدر السابق ج1/ 291-294

أحد أهمّ أركان التواصل العلمي والاجتماعي، والتعاون الثقافي، بين مصر والسودان الغربي. ومعلوم أنّ أساس شهرته في السودان الغربي وذيوع مؤلفاته فيه، هو علاقاته الواسعة بعلمائه، وبملوكه، وبطلابه، والالتقاء بالكثير منهم في رحلاتهم لأداء الحجّ أو لطلب العلم، وقد كانوا يحضرون دروسه، ويقرؤون عليه كتبه[1].

ويبدو لي أنّه يُقصَد بمجتمعات السودان الغربي في هذه الرسالة -بشكل أكبر- مجتمعات الفلاتة، والديالنكي في إمارة تكرور بمنطقة فوتا تورو في حوض نهر السنغال بين مالي وموريتانيا والسنغال ، والطوارق داخل الصحراء. يُستأنَس في هذا الذي ذهبت إليه بالتزام السيوطي للسجع في العنوان " **فتح المطلب المبرور وبرد الكبد المحرور في الجواب عن الأسئلة الواردة من التكرور**"؛ فقد يشير ذلك كلّه إلى نوع من التخصيص بالمجتمعات المذكورة[2].

ويمكن حمل ما ورد في رسالة اللمتوني على الأرياف والقرى دون المدن والمراكز الحضاريّة الكبرى وإن كان لا يستبعد وجود شيء من المخالفات في بعضها. **لكنّ وجودها لدى أولئك أو هؤلاء لا يمكن أن يمثل ظاهرة عامّة**[3]؛ لخمسة أسباب مهمّة، **أحدها**: أنّ أغلب ما ورد في رسالة اللمتوني لا يخفى على طلبة العلم المبتدئين في تلك العصور.

منها ما هو مقتضٍ للكفر مخرج من الملة، ومنها ما ليس كذلك. **الثاني**: أنّ أغلب تلك المخالفات معاصٍ تنتشر في كلّ المجتمعات الإسلامية إذا وجدت الدواعي كضعف الوازع والنازع الدينيَيْن، وغياب التوعية السليمة؛ بقلّة العلماء الربانيين أو سيطرة ذوي الأهواء؛ فيتركّز دور العلماء والدعاة ((حول تصحيح الأوضاع الموروثة من ممارسات الحكم، والعادات والتقاليد، وتصحيح مفاهيم الإسلام، ومحاصرة المبتدعين والبدع بالمجتمع))[4]، وبخاصة الأرياف ونحوها.

الثالث:

أنّ عصر اللمتوني وما قبله يمثل في أغلب أجزاء أفريقيا الغربية عصرا مهما من عصور الازدهار الحضاريّ، والعلميّ، والثقافي، والإصلاح الديني، والتوعية الإسلامية؛ بجهود ملوك كثيرين منهم منسا موسى–بعد عودته من أداء الحجّ عام (725هـ-1323-1324م)- ومَنْ بعده من ملوك مالي وسنغاي وعلماء المسلمين فيهما حتى تاريخ هذه الرسالة.

الرابع:

أنّ كثيرا من أولئك الملوك جمع العلم والسلطان، ومَنْ لم يكن عالما اتخذ من العلماء البارزين مستشارا، يقول آدم عبد الله الآلوري عن ملوك الإمبراطوريات الإسلامية في غرب أفريقيا: ((إنّ أكثر أولئك السلاطين علماء وفقهاء، وإذا لم يكن السلطان نفسه عالما فقيها اتخذ أحد العلماء البارزين وزيرا يدير له الدولة على وفق الشريعة، ولا بدّ من هيئة شوريّة على شكل لجنة الفتوى من كبار العلماء والفقهاء))[5].

وكان السلاطين يحترمون هؤلاء العلماء والفقهاء، ويزورونهم في بيوتهم، ويستفتونهم، ويشاورونهم في شؤون الدولة وما تتعرض له من أخطار ويأتمرون بأمرهم[6]، لم يتخلف عن هذه الأمور سلطان أو ملك في السودان الغربي!!!

---

[3]– انظر: التحدّث بنعمة الله/ 158، 211، والثقافة العربية الإسلامية وأثرها في مجتمع السودان الغربي خلال القرنين العاشر والحادي عشر للهجرة، السادس عشر والسابع عشر الميلادي، دراسة للتواصل الحضاري العربي الأفريقي، د.مطير سعد غيث أحمد/139، دار المدّ الإسلامي، بيروت، ط1، عام2005م.

[4]- يؤيده غضب ملك مملكة مالي منسا موسى في رحلة أدائه للحج عام (725هـ 1323-1324م) من إطلاق لقب ملك "التكرور" عليه في مصر؛ لأنّه لا يمثل إلا جزءا صغيرا من مملكته الواسعة، والأحبُّ إليه صاحبُ مالي؛ لأنّه الاسم الأكبر، وهو به أشهر. مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، فضل الله العمري، تحقيق د.محمد عبد القادر خريسات، ود.عصام مصطفى هزايمة، ود.يوسف ياسين4/59، مركز زايد للتراث والتاريخ، العين، الإمارات العربية المتحدة، بدون. إذا كان هذا موقفه -وقد عرفت مملكة مالي بهذا اللقب عند أهل مصر، كما يقول العمري- فكيف بمن بعده؟

1- وإن كان د.مطير يجعل عهد سنّي علي بير عصرا لما ورد في رسالة اللمتوني. انظر التفاصيل والردود في بحث: المراسلات العلميّة وأثرها التعليمي والثقافي والإصلاحي(مرجع ساق)/11- 15

[2]- الثقافة العربية الإسلامية د. مطير/155

[3] – الإسلام في نيجيريا/74

4– انظر: بحث: " تجارة القوافل بين المغرب والسودان الغربي وآثارها الحضارية حتى القرن السادس عشر الميلادي " د.الشيخ الأمين عوض الله/97 ضمن كتاب : تجارة القوافل ودورها الحضاري حتى نهاية القرن التاسع عشر الميلادي ، لمجموعة من

والسبب الآخِر: أنّ رسالة اللمتوني تحتاج إلى نظرات مُنعِمَة:

تتعلق بالمؤلف نفسه وبالرسالة، منها: تجاهل المصادر للمؤلف؛ إذ لم تورد المصادر من تواريخ، وتراجم، وطبقات – حسبما وقفتُ عليه– معلومات عن شخصيّة اللمتوني، إلاّ ما ورد عند السيوطي من تذييل وتصدير[1]. فكيف يمكن لعالم أن يكون على هذه المعرفة بالهيئات الإسلامية وبالعلماء خارج غرب أفريقيا، وعلى هذا المستوى من العلم والعناية بشؤون الإسلام وبقضايا مجتمعه الدينيّة، والعلميّة، والثقافيّة، والاجتماعيّة، والإداريّة، ويصفها هذا الوصف، ثم يكون نكرة في بيئته؟؟؟

يزداد الأمر غرابة بالتشابه الشديد في المضمون والأسلوب بين رسالة اللمتوني وأسئلة أسكيا محمد للمغيلي[2].

ب- أحمد بابا التنبكتي المالكي:

لأحمد بابا بن أحمد التنبكتي، صاحب "نيل الابتهاج"، تواصل علميّ بعلماء شافعيين في مصر، منه: رسالة "مسائل إلى علماء مصر" بتاريخ 1014هـ 1605م. من ميزات هذه الرسالة أنّ أحمد بابا يبيّن-أوّلا- رأيه في المسائل وأدلته ثم يطلب من أولئك العلماء آراءهم فيها، أو يستفسر عن موضوعات استعصت عليه[3]، وفي الحالين تواضع، ورغبة في المدارسة والاستزادة. وإلاّ فإنّه لم يكن يقلّ عن نظرائه في بلاد المغرب، أو الحجاز، أو مصر، بل تفوَّق على الكثيرين منهم[4].

الباحثين ، معهد البحوث والدراسات العربية، بغداد، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، عام 1404هـ 1984م، مؤسسة الفليج للطباعة والنشر ، الصفاة ، الكويت.

[1]– ذيّل المؤلف رسالته بقوله: ((واسمي محمد بن محمد بن علي اللمتوني، فلا تنسني في دعائك ، والسلام)). وصدّر السيوطي أجوبته بـ((من الفقير عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد....الخضيري السيوطي الشافعي، إلى حبيبه وأخيه في الله الشيخ العالم الصالح شمس الدين محمد بن محمد بن علي اللمتوني، أعزّه الله تعالى في الدارين، وأزال عن قلبه كلّ رين)) الحاوي للفتاوى1/291، وانظر: الثقافة العربية الإسلامية/141، حاشية 197

[2]- انظر: الثقافة العربية الإسلامية/155

[3]– اطلع على المخطوطة الباحث د.مطير سعد غيث أحمد ، في المكتبة الوطنية بباريس مع مجموعة برقم ARABE 5382، انظر: الثقافة العربية الإسلامية /141-145

[4]- **نال – بالمراسلة- إجازة من نزيل مكة المكرمة، وإمام المالكية في عصره الإمام يحيى بن محمد بن محمد الحطّاب**(902-995هـ، 1496-1578م)، ولم يلتق به؛ تقديرا لنبوغه العلمي، وإبرازا لمكانته العلميّة في بيئته حين يُعلم بإجازته من علماء في مناطق أخرى لم يجلس إليهم وإنّما سمعوا عنه وعن علمه. وكان يحضر دروسه في مدينة مراكش بعض كبار العلماء، والقضاة، كقاضي الجماعة بفاس، وقاضي مكناسة، وقاضي مراكش. وكانت الفتوى لا توجه إلا إليه في الغالب، واشتهر اسمه في البلاد وقصده بعض الطلبة الجزائريين فلما قدموا عليه في مراكش قالوا له: لا نسمع في بلادنا إلا باسمك فقط. ومَنحَ إجازات علمية -عن طريق المراسلة- لبعض تلاميذه كالتي منحها – بالمراسلة- لتلميذه عبد الرحمن التمزتي؛ بناء على ما بلغه –أثناء إقامته بمراكش- عن علمه وتقواه. انظر: نيل الابتهاج2/ 342-343. وفتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الصديق البرتلي، الولاتي، تحقيق محمد إبراهيم الكتاني ومحمد حجي/34-35، دار الغرب الإسلامي، بيروت، عام 1401هـ 1981م. والثقافة العربية الإسلامية/231، و سيادة المذهب المالكي في أفريقيا جنوب الصحراء/9

ج- العاقب الأنسوماني الأغاديسي:

أشار أحمد بابا إلى أنّ العاقب بن عبد الله الأنسوماني الأغاديسي –كان حيّا حوالي 950هـ- أحد أبرز تلاميذ المغيلي كتب كتابا بعنوان " وجوب الجمعة بقرية أنوسَمان" في الردّ على العلماء الذين عارضوا إقامة الجمعة في قريته " أنوسمان" برغم توفُّر العدد، وأرسل الكتاب إلى علماء مصر فصوَّبوا ما ذهب إليه في كتابه[1]. والعاقب ممَّن أخذ عن السيوطي لمّا حجّ[2].

منهج التواصل ووسائله في العصر القديم:

يتضح ممّا تقدّم أنّ لهذا التواصل العلمي منهجين رئيسين، الأوّل: أن يبيّن العالم المالكي في غرب أفريقيا رأيه في المسائل وأدلته ثم يطلب من أولئك العلماء آراءهم فيها. والآخَر: أن يستفسر عن موضوعات استعصت عليه.

أمّا وسائل هذا التواصل فأهمّها:

المراسلة الكتابية، والالتقاء بالعالِم عند الذهاب للحجّ والعودة منه. وهناك وسيلة ثالثة غير مستبعدة وهي المراسلة الشفوية بتحميل شخص رسالة شفوية، سواء كان عالما، أم حاجّا، أم تاجرا....إلخ.

يظهر من المنهج ووسائله:

- تحقُّقُ التواصل العلمي والثقافي برغم الاختلاف المذهبي.
- التواضع؛ بإظهار الرغبة في المدارسة والاستزادة في ثقة وموضوعيّة.
- صدق النصيحة والإخلاص لمن استشار.
- أنّ علماء المالكيّة في غرب أفريقيا لم يكونوا أقلّ من نظرائهم المالكيين وغيرهم في البلاد الأخرى، بل تفوَّقوا على الكثيرين منهم.

---

[1]- انظر: نيل الابتهاج1/399، ومجلّة التواصل(مرجع سابق) عدد 9 سنة 3 ص152، وفي حاشية 4 أنّ قرية أنوسَمان، قريبة من مدينة تيجَدَّا أو (تِكدَّة) في شمال غرب أغاديس، وعدد 14، سنة 4 ص177

[2]- انظر: نيل الابتهاج1/399، والتواصل (مجلّة فصلية ثقافية، تصدرها جمعيّة الدعوة الإسلاميّة العالميّة، ليبيا) عدد9، سنة3 مارس 2006م ص162، بحث" إسهام الأفارقة في الثقافة العربيّة الإسلاميّة، غرب أفريقيا نموذجا" علي يعقوب، وعدد 14 سنة4 عام 2007م ص177، استطلاع بعنوان: " أغاديس مدينة الأسوار المفتوحة" إعداد جمال الدين محمد.

من التواصل العلمي حديثا

شهد العصر الحديث - قبيل الاستعمار الفرنسي إلى وقتنا الحاضر- تواصلا علميا بين علماء مالكيين بغرب أفريقيا وغيرهم من علماء المذاهب الفقهية الأخرى في بعض الدول العربية، وبخاصة المذهب الشافعي بمصر، والحنبلي بالسعودية.

للتواصل العلمي بين علماء مالكيين بغرب أفريقيا وعلماء من المذهبين الشافعي بمصر، والحنبلي بالسعوديّة في العصر الحديث دوافع كثيرة، من أهمّها:

- التأكُّد والتثبُّت لعدم الاطمئنان أو القبول بما قد يكون صدر في المسألة من فتاوى بعض علماء المنطقة المحلّيين حتى لو كان من خرّيجي إحدى الجامعات الإسلاميّة والعربيّة.

- أن يكون أحد القولين مخالفا للمذهب السائد في غرب أفريقيا، وهو المذهب المالكي، أو لم يشتهر عندهم قول فيه، سواء كان مَنْ ذهب إليه ممن درس المذاهب الفقهيّة الإسلاميّة في الخارج أم عالما اطلع عليها فترجَّح له بالدليل.

- الاستفسار عن مسألة.

- توقُّعُ إحاطةٍ أكثر بتفاصيل المسألة وأدلتها؛ بسبب أنّ المُرسَل إليه يُمكِنه الاتصال بالعلماء الأعلام، وبالجهات العلميّة، في هذين البلدين ، كهيئة كبار العلماء بالسعوديّة، والمجلس الأعلى للشؤون الإسلاميّة بمصر، وغيرهما. أو يُمكِنه الاطلاع على مصادر قديمة، أو مراجع حديثة لا يسهل الاطلاع عليها لمن في غرب أفريقيا إن لم يتعذر عليه، كفتاوى جديدة، وقرارات علميّة لبعض المجامع الإسلاميّة كمجمع الفقه الإسلاميّ التابع لمنظمّة المؤتمر الإسلاميّ، ومجمع الفقه الإسلامي التابع لرابطة العالم الإسلامي، ومجمع البحوث الإسلاميّة في الأزهر..إلخ.

- التعاون في نشر الإسلام وثقافته وتوعية مجتمعاته.

من نماذج التواصل العلمي في العصر الحديث:

أولا: مراسلة لأحد علماء مالي إلى علماء في السعوديّة، ومصر، تناولت ثلاث قضايا علميّة، هي: ترجمة خطبة الجمعة إلى لغات أخرى، والحجّ بأموال جُمعت من مساهمة عدد من الأشخاص، والصلاة في الطائرة.

لقد أخذ صاحب المراسلة آراء علماء من المذهب المالكي في مالي، والنيجر، وغينيا كوناكري، وموريتانيا، وبوركينا فاسو[1]، ثم راسل علماء في السعودية وفي مصر، حيث المذهب الحنبلي في الأولى، والمذهب الشافعي في الثانية.

أمّا صاحب المراسلة فهو الشيخ الحاج عثمان بن أبي بكر خَلَفُ–رحمه الله-[2]، وقد وجهها إلى عدد من العلماء والهيئات العلميّة في الدولتين، كدار الحديث المكيّة، وعلماء في المدينة المنوّرة معظمهم أساتذة في الجامعة الإسلامية، وجامعة الأزهر.

وفي حديثه عن هذه القضايا والاستدلال على جوازها أخذ يسرد مَن راسلهم من الشخصيات والهيئات فقال: ((**وقد أفتى علماء دار الحديث في مكة المكرمة...**)). **كان الردّ** على أسئلته بتاريخ " ذو الحجّة عام 1384هـ، الموافق أبريل عام 1965م"، **وبإمضاء مدير** مدرسة دار الحديث بمكة المكرمة محمد عمر عبد الهادي، والمدرس السيد محمد عبد الحق الهاشمي، وأبو محمد عبد الحق الهاشمي، وسكرتير الدار علي عامر عقلان الأسدي[3].

ثمّ ذكر عددا ممَّن راسلهم **كعلماء المدينة المنوّرة**، وكان تاريخ ردّهم على أسئلته هو: عام 1382م، بإمضاء لفيف من العلماء[4].

1- انظر: المراسلات العلمية وأثرها التعليمي والثقافي والإصلاحي(مرجع سابق)/31-30

2- انظر: كتاب تبيين الأحكام في استحباب تفسير الخطبة للخطيب الإمام، تأليف سيدي الحاج عثمان بن أبي بكر، ويليه للمؤلف كتاب الحق المبين في جواز الاشتراك المعين على طلب زاد الحجّ للمسلمين/42-45، نشر وتوزيع المكتبة الإسلاميّة للحاج عيسى أنغيا، بماكو، مالي، عام1411هـ1990م

3– منهم: نائب رئيس الجامعة الإسلاميّة "لم يذكر اسمه "، ورئيس هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالمدينة: شهيد، وعطية محمد سالم ، مدرّس بالمسجد النبوي والجامعة ، وعبد القادر شيبة الحمد، مدرّس بالمسجد النبوي والجامعة . وسعد الدين أحمد، مدرّس بالمسجد النبوي والجامعة. ومحمد شريف، مدرّس بالمسجد النبوي والجامعة. وأبو بكر جابر [الجزائري] مدرّس بالمسجد النبوي والجامعة. وحامد بكر كتبي، مدرّس بالمسجد النبوي ودار الحديث بالمدينة المنوّرة. والسيد محمود طرازى ، مدرّس بالمسجد النبوي ...إلخ. انظر:كتاب تبيين الأحكام (مرجع سابق)/47-46

ولجنة الفتوى بمجمع البحوث الإسلاميّة بجامعة الأزهر في القاهرة بمصر، **وكانت** إجابة اللجنة عن أسئلته عام 1382هـ، **بإمضاء عضو اللجنة** محمود عبد الدائم، وختم لجنة الفتوى بالأزهر[1].

وبعد ذكر هؤلاء العلماء والهيئات العلميّة في السعودية ومصر، وعلماء آخرين من بعض مناطق جمهورية مالي، وبعض دول غرب أفريقيا التي سبق ذكرُها، ختم بقوله: ((**وغيرهم ممن يطول ذكرهم**[2]، [وقد أفتوا جميعا] بجواز تفسير خطبة الجمعة والعيدين بلسان القوم الحاضرين لها بعد قراءتها وإلقائها بالعربية إذا كانوا لا يعرفون العربية، وبجواز هذا الاشتراك المعلوم لطلب زاد الحجّ، **برسائل مُوَقّعة، مُمْضاة، مختومة، محفوظة مُدَّخرة عندي إلى الآن، بعضهنّ نثر، وبعضهنّ نظم، والله على ما نقول شهيد. وما منعنا أن نكتبهنّ –هنا- إلاّ خوف التطويل المملّ، وكثرة مؤونة الطبع، ولعلَّهنّ أن يطبعن بعد هذه** إن شاء الله ذلك))[3].

إنّ مَنْ يُنعِم النظر في هذه المراسلة يخرج بعدّة أمور، منها:

1) احتفاظ الشيخ عثمان خَلَفُ بها يدلّ على موضوعيّته ومصداقيّته، وسدِّ كلّ باب قد يأتي منه الشكّ أو الطعن فيها.

2) تأكيد التواصل العلميّ على اختلاف المذاهب، والرغبة الصادقة في التنوُّع الثقافي وفي التوصُّل إلى الحكم بدقّة وموضوعيّة؛ فبعض مَنْ راسلهم صوفيّون وآخرون سُنِّيون، منهم مالكيّون، وشافعيون، وحنابلة. القاسم المشترك بينهم أنّهم مسلمون، يتواصلون باللغة العربيّة، ويهدفون إلى نشر التوعية والثقافة الإسلاميّة.

3) ترسيخ انفتاح المذهب المالكي وعلمائه على المذاهب الفقهية الأخرى وعلمائها ومؤسساتها من أجل خدمة الإسلام وثقافته ونشر اللغة العربية.

4) تأكيد عالميّةِ الحضارة الإسلاميّة وإسهام مختلف الأجناس في ترسيخ دعائمها والمحافظة على مكتسباتها الإنسانيّة، والعلميّة، والثقافيّة، والاجتماعيّة...إلخ. وعالميّةِ اللغة العربيّة التي اكتسبتها من عالميّة الإسلام وانتشاره.

5) أنّ كثيرا من علماء مالي وبلاد غرب أفريقيا الأخرى يعرفون بعض ما في الدول العربيّة من مراكز علميّة وثقافيّة، وهيئات دينيّة، وأهدافها. والعكس كذلك. كما أنّهم لا يقلّون عن غيرهم في البلاد العربيّة، سواء كانوا من علماء المذاهب الفقهية الأخرى أم من علماء المذهب المالكي نفسه. لا يقلّون عنهم لا من حيث العلمُ، أو العنايةُ بالنوازل والنظر فيها والبحث عن حكم الإسلام فيها، أو نشر الوعي بها. وإن كان يغلب على علمائنا عدم كتابة مواقفهم أو عدم نشرها؛ فتضيع بمرور الزمن والتنقُّل بين أيدٍ لا تقدِّرها حقَّ قدرها.

6) لم يكن هذا التواصل العلمي – لا قديما ولا حديثا - بسبب ضعف المستوى العلميّ لعلماء المالكية بغرب أفريقيا، أو الشك في قدراتهم الاستنباطيّة والاجتهادية، وإنّما كان من باب التوكيد، وتنويع المصادر العلميّة والمراجع الثقافيّة والفكريّة، والرغبة في التواصل العلمي والمدارسة، وتقوية إقناع المخاطَبين وبخاصّة في مسائل يكثُر فيها-أحيانا- النقاش، والتخاصم.

ثانيا: مراسلة سماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز(ت 1420هـ) -رحمه الله- المفتي السابق للمملكة العربية السعوديّة لإحدى الجمعيّات الإسلامية في مالي[4].

---

[1]– انظر: المرجع السابق/40-41

[2]- **كالعلاّمة الفهّامة مفتي بلاد النيجر: ألفا العرب، وقد كان الإمضاء بـ"أخوكم في الإسلام ألفا العرب في بلد نيامي عاصمة بلاد نيجر، حرسها الله تعالى، آمين، سنة 1968م"** كتاب تبيين الأحكام/50-51. وهو عالم لغوي، فقيه، واسمه حسين محمد، ويُعرف بـ" حسين بَبُّو"، وشهرته: ألفا لارَبُو، من مدينة تَيَني في منطقة تيلابيري، جاور في الحرمين مدّة.

[3]- كتاب تبيين الأحكام/ 13-32. **ويُلحظ أنّه استعمل ضمير الإناث العاقلات " هنّ" لغير العاقلة 4 مرّات، وكذلك نون النسوة في "يطبعن".** وهو صحيح لغة، وقد ورد به عدد من الأحاديث النبوية.

1- انظر دراسة تفصيلية للرسالة في: المراسلات العلمية وأثرها التعليمي والثقافي والإصلاحي(مرجع سابق)/46-40، ومجلّة قراءات أفريقية، عدد3، ص8-15. كان سماحته- رحمه الله- أحد أعلام أهل السنّة، ومن أبرز علماء الإسلام المعاصرين الذين بذلوا مالهم، وجهدهم، وعلمهم، في خدمة الإسلام، ونشر التعليم الإسلامي والعربي، ومساعدة مدارسه وعلمائه. وقد شهدتْ إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد(سابقا) التي كان رئيسها، شهدتْ الكثيرَ من التواصل العلمي – بالمراسلة- مع العلماء والدعاة في غرب أفريقيا وفي غيره من جميع أنحاء العالم حول مسائل فكريّة، وعقديّة، وفقهيّة، ودعويّة. وكان رحمه الله يقوم بلقاءات متكررة مع العلماء والمفكّرين والدعاة وطلبة العلم بمكة المكرّمة، والطائف، والرياض. كما كان – رحمه الله- يبعث

إنّ في رسالة الشيخ ابن باز -رحمه الله- زيادة تتمثل في الزيارة الميدانيّة؛ فليس من رأى كمن سمع؛ وذلك أنّ الرسالة حملها وفد مُكوَّن من أربعة أشخاص التقى بالمعنيين، وحاورهم، وسعى للتوفيق والإصلاح، والتوعية. ثلاثة من الوفد من علماء المدينة المنوّرة، وهم رئيس الوفد: الشيخ عمر محمد فلاتة، مدرّس في المسجد النبوي والجامعة الإسلاميّة وكان الأمين العام الأسبق للجامعة، والشيخ محمد أمان الجامي، مدرّس في الجامعة الإسلامية، والشيخ حامد بكر الكتبي، مدرّس في المسجد النبوي ودار الحديث الخيريّة بالمدينة-رحمهم الله جميعا-، أصله من مالي من أبناء سنغاي؛ فكان المترجم من لغة سنغاي وإليها، ورابعهم سكرتير الوفد، لم يُذكَر اسمه.

بين يدي الرسالة:

ظهرت في شمال مالي وشرقها – أوائل السبعينيّات الميلاديّة تقريبا- طائفة أطلقت على نفسها الجمعيّة الإسلاميّة: "جمعيّة أنصار السنّة "، وكان ظهورها في طور من أطوار النهضة السنيّة الحديثة في هذا الجزء من غرب أفريقيا، وبهدف نبيل وهو أن يكون لأهل السنّة جمعيّة تُوحِّد جهودهم في الدعوة والتعليم، وتجمع علماءهم، لكنّها ما لبثتْ أن حادت عن هذا الهدف، وانقسم أهلها إلى أكثرية، وأقليّة أحدثت أمورا تخالف منهج السلف الذي شهد نهضة وتطوُّرات إيجابية؛ بعودة أبناء البلاد الذين انتشروا لطلب العلم في البلاد العربية، كالحجاز(الحرمين) ومصر، وغيرهما. حيث قاموا بالأمر بالمعروف والنهي عن التقاليد المخالفة للشريعة الإسلاميّة، وعاشوا على خير ما يرام. وقد تجاوز تأثيرهم العلمي والثقافي والإصلاحي على مذهب أهل السنّة والجماعة -غالبا- منطقتهم إلى كلّ دول غرب أفريقيا التي يعيشون فيها أو تسكن لهم فيها جاليات.

لكنّ هذه الجمعيّة انحرفت عن الصورة السابقة للدعوة وللدعاة عامّة. لأسباب منها: التغييرات التي أدخلوها فيها بحجّة الإصلاح والتطوير، وتناسي الهدف الأساس من إنشائها، وحبّ الرئاسة، والاختلاف حول التلقُّب بأمير المؤمنين في هذا العصر. ولمَّا اشتدّ الخلاف بينهم كتبوا رسالة إلى طلبة العلم في الحرمين من أبناء شعبهم ومنطقتهم، وكان أكثرهم طلاّبا في الجامعة الإسلاميّة بالمدينة المنوّرة، وفي حلقات التعليم بالحرمين الشريفين، وفي دار الحديث الخيرية في مكة وفي المدينة النبوية[1].

كان خلاصة ردودهم أنّه لا يلزم تسمية رئيس جمعيّتهم بالأمير؛ لوجود ما يغني عنه، كلفظ "رئيس"، أو بتقييد الإمارة بنحو أمير جماعة معيَّنة ونحوهما، وليس بأمير المؤمنين. مع النصح لهم بالتكاتف والتآلف، وبنبذ الفرقة والخلاف[2].

تمسكَّت الجمعيّة بمواقفها؛ فشقّت عصا أهل السنّة الذين انقسموا بين مؤيّد ومخالف وهم الأكثر، بل قسِّمت قرية (كاج) إلى قسمين. أمّا رئيس الجمعيّة سعيد إدريس -رحمه الله- (ت 1427/4/3هـ، 2006/5/1م) – وهو من خرّيجي حلقات التعليم الإسلامي في المنطقة- فقد نصب نفسه على أحدهما، وسمّاه بـ(دار السلام)، وتلقّب بأمير المؤمنين، ورفض الطاعة لأمير القرية الذي عيّنته الحكومة. ثم أخذت الجمعيّة تُكفِّر مَن لا ينتمي إليها مِن أهل السنّة ومن غيرهم، ولا تأكل ذبائحهم، ولا تصلّي خلفهم ولا في مساجدهم؛ إذ تعدّهم مشركين أو مرتدّين، تستبيح أعراضهم، وأموالهم، ونفوسهم، فأقامت الحدود –حسب زعمها- على أتباعها، وبخاصة حدّ الردّة –الخروج منها- ففرَّقت بها بين الرجل وأهله، كما أوجبت الهجرة إلى مراكزها في مالي، والنيجر، وغانا، وغيرها، في تجمعات خاصة، وبيوتات منتشرة في الدول المذكورة، الهدف منها جميعا الانفصال عن المجتمع الذي يعدُّونه مشركا أو مرتدّا، والإبقاء على الصلة القويّة بأميرها، والطاعة المطلقة له أو لنائبه في كلّ دولة أو تجمُّع. شأنها في ذلك كلّه شأن كثير من الحركات الإصلاحية التي تقوم هنا وهناك-قديما وحديثا-؛ إذ تُسوِّغ وجودها، وتُسوِّق لنفسها ولبضاعتها بأنّ الواقع الذي وُلِدتْ فيه كان خرابا يَبابا، وهي شمسه،

بالرسائل والوفود إلى غرب أفريقيا للإرشاد والتعليم، والدعوة إلى الله، والإصلاح بين العلماء أو القيادات الإسلامية؛ بسبب الاختلاف في مسائل يترتب عليه –أحيانا- فُرقة، وتناحر، وتقاطع. والثلاثة المذكورون – أعلاه- من مبعوثيه إلى غرب أفريقيا في أواخر السبعينيّات إلى منتصف الثمانينيّات الميلاديّة، وهم الذين حملوا رسالته التي نحن بصددها.

[1] - انظر: المرجع السابق/37

[2] - انظر: المرجع السابق/38

وقمره، وعافيته[1]؛ بعيدا عن المنهج الإسلامي في البناء؛ بتحسين القائم على أساس صحيح وترسيخه، وإعادة بناء ما ليس كذلك؛ انطلاقا من حديث: ((إنّما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق))، في إنصاف نادر، وتقويم سديد، للمجتمع الإنساني الذي لا يمكن أن يخلو من وجوه الخير ومظاهر الفطرة السليمة، فكيف بمجتمع غالبيته مسلمون؟

إنّ هذه الجمعيّة-مع ما سبق عنها- تعُدُّ نفسها الطائفة السنّيّة الخالصة، ووجدت –قبل اكتشاف حقيقتها- تشجيعا ماديّا ومعنويّا من بعض الوفود الإسلاميّة التي زارتهم في الثمانينيّات؛ طمعا في إصلاحها بجعلها تنبذ معتقداتها المخالفة لمذهب أهل السنّة، وقد أحدثت بها انشقاقا كبيرا بين المسلمين في هذه المنطقة وفي الدول التي تتواجد فيها جالياتهم. فأطلق عليهم مخالفوهم الخوارج؛ لكون معتقداتهم موافقة في الجملة لعقائد الخوارج.

تعرَّضتْ لعوامل تآكُلٍ كثيرة، كعودة كثير من أعضائها إلى المنهج السليم بعد التعلُّم في الجامعات الإسلاميّة والعربيّة، ثم تبيُّن الحق في أمر مَنْ تبقى من أعضائها؛ بسبب الرسالة التي نحن بصدد دراستها وتحليلها؛ وبمحاورة مشهودة لأميرها بمدينة الطائف أمام لجنة علميّة من كبار العلماء برئاسة سماحة الشيخ ابن باز-رحمه الله- في أواخر عام1412هـ وأوائل1413هـ. ولا تزال طائفة منهم في تجمعات خاصّة بهم في مالي، وغانا، والنيجر.

لمَّا استفحل الخلاف وبلغ الأمر سماحة الشيخ ابن باز أرسل الوفد السابق ذكرُه[2] ومعهم خطاب رقم 333 بتاريخ 1402/3/18هـ إلى أمير تلك الجماعة[3]. غادروا المدينة المنوّرة ثم جدّة في يوم الأحد 1403/4/9هـ إلى مدينة كانو بنيجيريا، ثم إلى بماكو عاصمة مالي التي وصلوها يوم الاثنين 1403/4/10هـ. أمّا منطقة غاو فوصلوها صباح الخميس1403/4/20هـ[4].

جاء في مقدمة خطابه: ما يفيد متابعة الشيخ لأخبار الدعوة والدعاة في غرب أفريقيا وغيره. **وبيان الدافع** إلى الخطاب والغرض منه. وتحديد مهمّة الوفد الذي أرسل الخطاب معه، وبيان مدى أهليّتهم العلميّة والدعويّة للقيام بما نيط بهم.**وبيان ثقته** في استعداد المرسَل إليهم للالتقاء بالوفد وغيرهم من العلماء للمناقشة والحوار البنّاء، والتآزر في الإصلاح ورأب الصدء، ونشر الثقافة الإسلاميّة[5]. **كما بيَّن** ما أوصى به ذلك الوفد كالتباحث العلميّ معهم بموضوعيّة للوصول إلى نتيجة مقنعة مبناها الدليل والبرهان، وإزالة الهزازات، وتهيئة النفوس لقبول الحق من أيّ كان. وبيان خطورة الاختلاف، وأنواعه، وأسبابه: دنيويّة شخصيّة وتطلُّعٌ إلى الرئاسة، ودينيّة فقهيّة أو عقديّة. وما يجوز فيه الاختلاف وما لا يجوز فيه. والمؤهَّل للاجتهاد وموطن الاجتهاد. والتنبيه إلى الأسلوب الصحيح في تناول المسائل المختلف فيها، وآثار الاختلاف السيّئة إذا لم تعالج المسائل على نهج قويم، وبحكمة وموضوعيّة، وبالدليل والبرهان من الكتاب والسنّة[6].

ثم أخذ الشيخ –رحمه الله- في تقديم النصائح، وبيان الحلول في مسائل الاختلاف السابق ذكرها، وبيان منهج السلف فيها، وأنّ على القائمين بالتعليم والثقافة وبالإصلاح والتوعية والدعوة، ضرورة فهم المصطلحات الدينيّة وسياقاتها التي ترد فيها، وما قد يندرج تحت كلّ مصطلح من أقسام أو مراتب، كالكفر، والشرك، والظلم، والذنوب[7]. **ودعا** إلى عدم التسرُّع في الحكم على الناس بكفر أو شرك، خاصة في بيئتهم، وإلى ضرورة فقه الواقع الذي يعيشون فيه. ومِنْ فِقهه: مراعاةُ قرب عهده بالاستعمار الذي حال بين العلماء ونشر الوعي الإسلامي الصحيح، والتفريقُ بين الجاهل بالحكم وغيره، ومعرفةُ أنّ كثيرا من العامّة يجهلون أحكام الدين، وحاجةُ بعض المنتسبين إلى العلم إلى تحقيق وتدقيق. **كما دعاهم** إلى الانطلاق من التيسير والرفق والحكمة، والتثبُّت والرويّة. وعدم الانطلاق في التكفير من مجرّد الشك. وبيَّن **أنّ** مثل هذه التصرفات لا تخدم الدعوة بل تضر بها، وتنفر الناس عنهم،

---

[3]– فصول في التفكير الموضوعي/90 بتصرف

[1] - انظر: ص12 من هذه المداخلة.

[3] - اقرأ نصّ الخطاب في: رسالة في بيان عادات مخالفة للشريعة/ 58-65

[4] - انظر تفاصيل الرحلة وأحداثها في المرجع السابق/48-56

[5] - رسالة في بيان عادات /58-95

[6] - انظر: المرجع نفسه/59-60

[7] - انظر: المرجع نفسه/60-61

وتصدّ عن سبيل الله، وهي تتنافى مع الحكمة التي أمر الله بها بقوله تعالى: {{ **ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن** }} [النحل125] ((..... سائلين الله تعالى لنا ولكم الهداية والتوفيق للإخلاص لوجهه سبحانه مع إصابة الحق؛ إنّه قريب مجيب، وصلى الله وسلم وبارك على نبي الرحمة محمد وآله وصحبه وسلم. الرئيس العام لإدارات البحوث العلميّة والإفتاء والدعوة والإرشاد))[1].

[1] - المرجع نفسه/ 62-65

تلك إشارات إلى ما جاء في خطاب ابن باز، فماذا كان موقف الجمعيّة من الخطاب؟

أوّل قطرة هو رفض رئيس الجمعيّة الاستجابة للخطاب، بل قام بتحريف بعض ما ورد فيه بطريقة يخدم أهدافه. فكتب رسالة بخطه، وغيّر فيها وبدّل، وحذف وزاد، ثم إنّ بعض أتباعه وجدوا صورة خطاب الشيخ مع المخالفين لهم؛ فعلموا أنّ ما جاءهم غير خطاب الشيخ بل يخالفه كلّ المخالفة، ووجد بعض أتباعه في أنفسهم شيئا من ذلك، وفهموا منه عدم اعتباره لهم كأعضاء عاملين معه في الدعوة إلى الإسلام حتى يخفي عنهم خطاب سماحة الشيخ عبد العزيز، وقد كان ذلك من أسباب ضعف العلاقة بينه وبينهم[1].

وبرغم هذا الرفض فإنّ ابن باز -رحمه الله- لم يألُ جهدا في محاولة إصلاحها باستقبال أميرها في مكة المكرمة، والطائف، في زيارات متكررة، ومحاورته، ومحاولة الأخذ بيده إلى المنهج السليم.

لعلّ قائلا يقول: إذا كانت الجمعيّة ورئيسها قد رفضت خطاب ابن باز وحرّفته فكيف يمثِّل هذه المراسلة التواصل العلميّ ؟ للإجابة أقول: إنّها برغم ذلك كلّه تمثِّل التواصل العلمي من عدّة نواح، منها:

1) بنشر المضمون الحقيقي للخطاب بين الخاصة والعامة وجدوا فيه توجيهات سديدة في التعامل مع المخالف، ونصائح قيّمة للعلماء والدعاة، وبيانا لمواطن الاختلاف، وردودا قويّة بأدلة من الكتاب والسنّة على بطلان مبادئ تلك الجمعيّة وأمثالها، ومخالفة مناهجها للشرع الحنيف، وأنّها قد تكون معوِّقاتٍ لانتشار الدعوة الإسلاميّة، وأسبابا للتنفير منها والصدّ عن سبيل الله.

2) أنّ على مَنْ يريد الإصلاح والتوفيق بين المسلمين فيما يختلفون فيه ضرورةَ الاتصال بطرفي الاختلاف والاستماع إليهما، وفقه واقعهم الاجتماعي، ومستواهم التعليمي، وضرورة مراعاة أحوال المخاطَبين، ودقة التثبُّت والتحرّي لمعرفة الشُّبَه، والدوافع، والأدلّة؛ فبذلك تتضح حقيقة المواقف، وتتآلف النفوس، وتستعدّ لقبول الحق الذي يؤيّده الدليل والبرهان، وتزرع الثقة بمن يريد الإصلاح والتوفيق، ونشر العلم والثقافة. كان ذلك كلّه بسبب وجود صورة الخطاب لدى المخالفين للجمعية.

3) تقوية موقف المخالفين لهم الذين وصفوهم من البداية بالخوارج، ورأوا في مواقفهم وأحكامهم مخالفات صريحة لمذهب أهل السنّة والجماعة الذي سمّوا الجمعيّة باسمه.

4) أسهم في الاحتساب؛ ببيان الحكم الشرعي في مسائل الاختلاف، وبالتنبيه إلى ضرورة التثبُّت والتريُّث في الانتماء إلى جمعيّات كثيرة تحمل أسماء مغرية حتى لا يؤخذ الإنسان على حين غِرّة.

5) شارك في ترسيخ أحد أهمّ الأسس القويّة للتواصل العلمي بين العلماء والهيئات الإسلاميّة في غرب أفريقيا حيث يغلب المذهب المالكي، وبين نظرائهم في السعوديّة حيث المذهب الحنبلي. ذلك الأساس هو التباحث العلميّ بموضوعيّة، ودقّة، وإخلاص؛ للوصول إلى نتيجة مقنعة مبناها الدليل والبرهان.

منهج التواصل ووسائله في العصر الحديث: لا يختلف منهج التواصل في العصر الحديث عن المنهجين السابقين في العصر القديم، وهما: أن يبيّن العالم المالكي في غرب أفريقيا رأيه في المسائل وأدلته ثم يطلب من علماء المذاهب الأخرى آراءَهم فيها. أو أن يستفسر عن موضوعات استعصت عليه[2].

وتتمثل وسائل التواصل فيما يأتي : المراسلة الكتابية، والالتقاء بالعالِم إمّا في زيارات خاصة لمصر والسعوديّة أو في الندوات والمؤتمرات، والاستفتاء الشفوي بتحميل شخص رسالة شفوية، والاتصال الهاتفي أو البريدي، ثم الإلكتروني – في عهد قريب-.

وأنت تلحظ في المنهج ووسائله: تحقُّق التواصل العلمي والثقافي. والتواضع بإظهار الرغبة في المدارسة بموضوعية والاستزادة. وصدق النصيحة والإخلاص لمن استشار. وأنّ علماء المالكيّة

---

[1] - المرجع نفسه/56- 57 بتصرف.

[1]– اطلع على المخطوطة الباحث د.مطير سعد غيث أحمد ، في المكتبة الوطنية بباريس مع مجموعة برقم ARABE 5382، انظر: الثقافة العربية الإسلامية /141-145

بغرب أفريقيا في العصر الحديث ليسوا أقلّ من نظرائهم من علماء المذهبين الشافعي والحنبلي في تلك البلاد، بل يتفوَّقون على الكثيرين فيها؛ إذ إنّ عددا منهم من خرّيجي جامعات تلك البلاد وكلياتها ومعاهدها؛ ونتيجة لدراسة الفقه المقارن والتوسع فيه فإنّ هؤلاء الخرّيجين قد يخالفون المذهب المالكي في بعض فتاويهم، ليس استبدالا لغيره به ولكن موافقة لرأي الجمهور من علماء المسلمين على اختلاف مذاهبهم. وكذلك العكس، أي أنّ أهل المذاهب الفقهية الأخرى من دارسي الفقه المقارن قد يأخذون برأي المذهب المالكي وحده أو ضمن قول الجمهور.

والتواصل العلمي عند الفريقين أوثق عُرى، وأقوى دلالة، وأبعد عن التعصب؛ لأنّه يدور مع الدليل الأقوى، وتحقيق مصالح العباد والبلاد.

الخاتمة:

يتأكَّد بما سبق في هذه المداخلة القول بأنّ التواصل العلميّ، والتعاون الثقافي بين علماء المذهب المالكي بغرب أفريقيا وعلماء المذاهب الفقهية الأخرى وبخاصة المذهبان الشافعي بمصر، والحنبلي بالسعوديّة، لم يكن يتمّ – لا قديما ولا حديثا- بين طرف قويّ وضعيف، أو عالم وجاهل، أو متحضِّر وبدوي– كما يحلو لبعض المشَوِّهين للحقائق- وإنّما كان يتمّ في أحيان كثيرة بين الأنداد، من أجل التباحث العلميّ بموضوعيّة، والمدارسة بدقّة وإخلاص؛ للوصول إلى نتيجة مقنعة مبناها الدليل والبرهان؛ لتحقيق هدف نبيل هو التعاون لنشر الإسلام وثقافته وتعاليمه وحضارته.

وقد وقفتْ بك هذه المداخلة على نماذج من ذلك التواصل وعلى أهمّ دوافعه ثم منهج التواصل ووسائله، في القديم والحديث.

ومن ثَمَّ توصي بالاهتمام بهذا التواصل، والسعي في التوعية به، وفي تعزيزه وترسيخه على جميع المستويات، وبخاصة المستوى العلمي، والثقافي، والاجتماعي، والسياسي....إلخ.